الميت وخليج العقبة، بينما استدعي لورانس ـ ضابط المخابرات الشهير ـ العام ١٩١٣، فشارك في مسح منطقة النقب والمثلّث الارضي من صحراء سيناء حتى خط لجنة الحدود المصرية ـ التركية الممتدة من رفح الى خليج العقبة؛ وكان سبقه الكابتن نيوكمب الى مسح المنطقة الواقعة بين قناة السويس والحدود المصرية التركية[١١].

كان هؤلاء، الذين عملوا من خلال «صندوق اكتشاف فلسطين»، من طلائع الاستعمار والصهيونية؛ فجميعهم من أجهزة المخابرات البريطانية، وبعضهم صهيوني النزعة، مثل كوندر ولورانس، وقد أدوا خدمات جلّى للصهيونية بما قدموه من معلومات وخرائط، وبما كتبوه من كتب، وفي الوقت عينه، كان دور بعض هؤلاء، من خلال تواجدهم في سيناء والأراضي المصرية، العمل على تحريض البدو والقبائل ضد الثورة العرابية، مع محاولة شرائهم بالمال.

وكما كان الاستعداد لاحتلال مصر، كانت عمليات التمهيد لاحتلال فلسطين. فالقضية، بالنسبة الى بريطانيا، واحدة؛ وتأمين وجودها في مصر كان يتطلب وجودها في فلسطين، حماية لأمنها؛ فهي تدرك جيداً أين يكون أمن مصر. والذين حاربوا الثورة العرابية، كان من بينهم صهيونيون، قدّموا خدماتهم الى الصهيونية، ولعبوا دوراً في تحقيق أحلامها في فلسطين.

وقد وضعت مشروعات جاهزة لتنفيذ توطين اليهود؛ فكان مشروع لورانس أوليفانت، عضو البرلمان ووزير الخارجية والصحفي الذي عمل من خلال «صندوق اكتشاف فلسطين». وبعد ان قام بزيارات لفلسطين، لمسح أراضيها ودرس ظروف الاستيطان والاستعمار الزراعي، نشر، في العام ١٨٨٠، كتابه «أرض جلعاد»، واقترح اقامة مستوطنة يهودية شرق نهر الأردن تكون تحت السيادة العثمانية والحماية البريطانية. وكان اقتراحه ان تقوم المستعمرة على مساحة مليون ونصف المليون فدان شرق نهر الأردن، على ان يجلب الى هذه المستعمرة يهود من رومانيا وروسيا للاستيطان فيها.

أمّا توصياته بشأن السكان العرب في فلسطين، فكانت كالتالي: البدو، الذين وصفهم بأنهم «مولعون بالحرب» يجب ان يطردوا؛ أمّا العرب الفلاحون، فيستمالون ويوضعون على اراض خاصة بهم، كالهنود الحمر في أميركا الشمالية، ويمكن استغلال بعض الفلاحين العرب كيد عاملة رخيصة تحت اشراف يهودي؛ وكان للعرب، في نظره، حق ضئيل في المطالبة بشيء من العطف لأنهم ـ حسب زعمه ـ «خرّبوا البلاد، ودمّروا قراها، ونهبوا سكانها»[١٢].

ومع احتلال بريطانيا لمصر العام ١٨٨٢، وقبل ذلك احتلال فرنسا للجزائر العام ١٨٣٠، وتونس العام ١٨٨١، أصبحت فكرة التوطين اليهودي قابلة للتنفيذ؛ كما ان مشروع أوليفانت («أرض جلعاد») شجع المغامرين على السير على دربه. وكانت أولى مغامرات هؤلاء مغامرة بول فريدمان في «ارض مدين». وأهمية هذه المغامرة انها البداية الأولى لتحقيق أطماع الصهيونية في الاراضي المصرية، والتي وضعت موضع التنفيذ، وكانت أول محاولة لانشاء دولة يهودية في «أرض مدين» العام ١٨٩١.

والمقصود بـ «أرض مدين» المنطقة الساحلية الواقعة شمال غرب الجزيرة العربية حيث تتاخم حدودها الشمالية مدينة العقبة وتمتد جنوباً مسافة ٤٠٠ كيلومتر حتى تصل مرفأ «الموجه»، ولم يكن عدد سكانها، في نهاية القرن التاسع عشر، ليتجاوز العشرين ألف نسمة، وكانوا ينتمون الى قبائل بدوية تعتمد، في حياتها، على الرعي وتربية الماشية[١٣].

وأرض مدين هي ضمن الأراضي التي أُسندت ادارتها الى ولاية مصر بحدودها القديمة، كما جاء في الفرمان الصادر في حزيران (يونيو) ١٨٤١ لمحمد علي، وفيها بعض المراكز على الساحل